احفظ الله يحفظك

عناصر الخطبة:

بين يدي الحديث

شرح مفردات الحديث

عن أبي العباس عبد الله بن عباس قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا فَقَالَ: " يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ" وعند أحمد: " يَا غُلَامُ، أَوْ يَا غُلِيمٌ، أَلَا أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ " فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: " احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، (٢) لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكَرَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكُرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". (٢١٦)

بين يدي الحديث:

هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء عنه: تدبرتُ هذا الحديث فأدهشني؛ وكدت أطيئ. وقال بعضهم: إذا أردت أن توصي صاحبك أو أخاك أو ابنك فقل له: احفظ الله يحفظك. وقال سليمان بن داود عليهما السلام: تعلمنا مما تعلم الناس

ومما لم يُتَعلَّم الناس فما وجدنا كحفظ الله في السر والعلن. وكان الإمام ابن الجوزي يسميه:
الحديث المُدهش. (٢١)

شرح مفردات الحديث

قوله -صلى الله عليه وسلم-: " يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ "

فهو - بأبي هو وأمي - -صلى الله عليه وسلم- مُربي وأسوة وقدوة وإمام، بل ولخص للغلام المبارك ابن عباس العقيدة في تلك الكلمات المختصرة الموجودة في ذلك الحديث المبارك. والاهتمام بالتربية والنصح والتوجيه سمة المؤمنين والصالحين أجمعين، انظروا إلي وصية يعقوب عليه السلام وهو علي فراش الموت كما قال تعالي حكاية عنه: [أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي] انظروا وهو علي فراش الموت يطمئن علي عقيدة أولاده من بعده التي لطالما علمهم إياها، فقالوا: [نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] ثم انظروا إلي الخليل إبراهيم عليه السلام أيضاً كما قال الله تعالي: [وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ]. والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة. وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وصيانته بأن يؤدبه أبوه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء ومهما رأي فيه مخايل التمييز فإنه ينبغي أن يُحسن مراقبته. (٢٣)

قوله -صلى الله عليه وسلم-: " احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظَكَ "

الفعل واحد، وأسند مرتين: مرة إلى العبد، ومرة إلى المولى سبحانه.

والحفظ معناه أن تحفظ أمر الله وأن تتقنه، فلا يراك حيث نهاك، وأن تحفظ حدود الله ومراسمه التي أوجبها عليك، فلا تُضيع منها شيئاً. وحفظ الله هو تقواه حفظ أوامره ونواهيه أي بفعل الواجبات جميعاً وترك المحرمات كلها وكن مطيعاً لربك مؤتماً بأوامره منتهياً عن نواهيه. (٢٤)

ومن الأشياء التي يجب حفظها؛ بل أعظم ما يجب حفظه:

١ - حفظ الله في أسمائه وصفاته: فأنت أيها العبد مطالب أن تحفظ الله في كل شيء، فيما توجه إليك من أوامره، وفيما توجه إليك من نواهيه، ومما يجب له عليك أن تحفظه من أن تنسب إليه ما لا يليق بجلاله، فحفظ العبد لربه في ذات الله بأن يصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

٢ - حفظ الله في العبادات:

المحافظة على الصلاة: اعلم أن الأمر بالمحافظة على الصلاة أمر بالمحافظة على جميع شرائطها، أعني طهارة البدن، والثوب، والمكان، والمحافظة على ستر العورة، واستقبال القبلة، والمحافظة على جميع أركان الصلاة، والمحافظة على الاحتراز عن جميع مبطلات الصلاة سواء كان ذلك من أعمال القلوب أو من أعمال اللسان، أو من أعمال الجوارح، وأهم الأمور في الصلاة، رعاية النية فإنها هي المقصود الأصلي من الصلاة، قال تعالى: [حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ] (البقرة: ٢٣٨) وَمَدَحَ الْمُحَافِظِينَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: [وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ] [المعارج: ٣٤] [المعارج: ٣٤]. [٥]

واعلم أن حفظ الصلاة للمصلي على ثلاثة أوجه:

الأول: أن الصلاة تحفظه عن المعاصي، قال تعالى: [إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] [العنكبوت: ٤٥] فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء

والثاني: أن الصلاة تحفظه من البلى والمحن، قال تعالى: [واستعينوا بالصبر والصلاة] [البقرة: ١٥٣] وقال تعالى: [وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ] [المائدة: ١٢] ومعناه: إني معكم بالنصرة والحفظ إن كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة

والثالث: أن الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها، قال تعالى: [وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ] [البقرة: ١١٠] ولأن الصلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافع مشفع وفي الخبر: " إنه تجيء البقرة وآل عمران كأنهما عمامتان

فيشهدان ويشفعان " (٢٦)

٢ - وممَّا يُؤْمَرُ بِحِفْظِهِ الْإِيمَانُ:

قال الله تعالى: [وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (٨٩) [المائدة: ٨٩] فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقَعُ فِيهَا كَثِيرًا، وَيُهْمَلُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا يَجِبُ بِهَا، فَلَا يَحْفَظُهُ، وَلَا يَلْتَزِمُهُ.

٣ - حفظ الله باجتناب المعاصي:

وهكذا من حفظ الله ترك المحرمات والمعاصي، فلا يقدم عليها عمدًا، بخلاف من زلت به قدمه، والإنسان غير معصوم، وبعدما تزل به القدم في المعصية، يحس بأوساخه فيقوم فينفض الغبار عنه، ويغسل درنه بتوبة واستغفار، فهذا عبد الله حقًا.

٤ - ومن ذلك حفظ الرأس والبطن فعن ابن مسعود ((الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى)) (٢٧)

وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم. قال الله - عز وجل - : [وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ] [البقرة: ٢٣٥]. وقد جمع الله ذلك كله في قوله: [إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] [الإسراء: ٣٦]. ويتضمن أيضاً حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب. (٢٨)

وقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((يحفظك))

يحفظك جواب فعل الأمر يعني: أن من حفظَ حدود الله، وراعى حقوقه، حفظه الله، فإنَّ الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: [وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ] البقرة: ٤٠. وقال: [فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] البقرة: ١٥٢. وقال: [إِنْ تَتَّصَرُّوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ] محمد: ٧.

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله - عز وجل - : [لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ] الرعد: ١١.

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه (٢٩٦)

ومن حفظ الله في صباه وقوته، حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتع به بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله.

كان بعض العلماء قد جاوز المئة سنة وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبةً شديدةً، فعوتبَ في ذلك، فقال: هذه جوارحُ حفظناها عن المعاصي في الصَّغر، فحفظها الله علينا في الكبر (٢٩٧).

وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس، فقال: إنَّ هذا ضيَّعَ الله في صغره، فضيَّعَ الله في كبره. وقد يحفظُ الله العبدَ بصلاحه بعدَ موته في ذريته كما قيل في قوله تعالى: [وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا] الكهف: ٨٢. : أنَّهما حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا. قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظَ فيك، ثم تلا هذه الآية [وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا] وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقبِ عقبه. وقال ابن المنكدر: إنَّ الله ليحفظُ بالرجل الصالح ولده وولدَ ولده والدويرات التي حوله فما يزالون في حفظ من الله وستر. ومتى كان العبد مشغلاً بطاعة الله، فإنَّ الله يحفظه في تلك الحال فمن حفظ الله حَفِظَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ أَدَى.

النوع الثاني من الحفظ، وهو أشرف النوعين: حفظُ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلَّة، ومن الشهوات المحرَّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان.

وعن البراء بن عازب أن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أمره أن يقولَ عندَ منامه: إن قبضتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظُ به عبادةُ الصالحين. (٢١١)

وفي الجملة، فالله - عز وجل - يحفظُ على المؤمن الحافظَ لحدود دينه، ويحولُ بينه وبين ما يُفسدُ عليه دينه بأنواعٍ من الحفظ، وقد لا يشعرُ العبدُ ببعضها، وقد يكونُ كارهاً له، كما قال في حقِّ يوسف -عليه السلام-: [كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ] يوسف: ٢٤. (٢١٢)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((احفظ الله تجده تجاهك))، وفي رواية: ((أمامك))

المعنى: تجده حيث ما توجهت. أي إنَّ مَنْ حَفِظَ حُدُودَ اللَّهِ، وراعى حقوقه، وجد الله معه في كلِّ أحواله حيث توجهَّ يحوطُهُ وينصرُهُ ويحفظُهُ ويوقِّفه ويُسدده قال تعالى [إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ] النحل: ١٢٨. قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه، فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل. (٢١٣)

فهذه المعيةُ الخاصةُ تقتضي النصر والتأييد، والحفظ والإعانة بخلاف المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: [مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا] المجادلة: ٧، وقوله: [وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ] النساء: ١٠٨، فإنَّ هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضيةٌ لتخويف العباد منه، والمعية الأولى تقتضي حفظ العبد وحياطته ونصره، فمن حفظ الله، وراعى حقوقه، وجده أمامه وتجاهه على كلِّ حالٍ، فاستأنس به، واستغنى به عن خلقه. (٢١٤)

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعرف إلى الله في الرِّخاء، يعرفك في الشدَّة)) يعني: أن العبد إذا اتقى الله، وحفظَ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرّف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفةً خاصةً، فعرفه ربُّه في الشدَّة، ورعى له تعرُّفه إليه في الرِّخاء، فنجَّاه من الشدائد بهذه المعرفة،

وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون.

ومعرفة الله أيضاً لعبده نوعان:

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، وإطلاعه على ما أسرّوه وما أعلنوه، كما قال: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ] ق: ١٦. ، وقال: [هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ] النجم: ٣٢.

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله -صلى الله عليه وسلم- فيما يحكى عن ربه: ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فلئن سألتني، لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))، (٢١٥)

قوله: (إذا سألت فاسأل الله) انتقل الحديث إلى جانب مهم من جوانب العقيدة

أرشده إلى التوكل على مولاه وأن لا يتخذ إليها سواه ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ما قل منها وما كثر قال الله تعالى: [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] الطلاق: الآية ٣. فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله فقد أعرض عن ربه بمن لا يضره ولا ينفعه وكذلك الخوف من غير الله وقد أكد النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك فقال: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك" وكذلك في الضر وهذا هو

الإيمان بالقدر والإيمان به واجب خيره وشره وإذا تيقن المؤمن هذا فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به؟

وهذا كأنه منتزع من قوله تعالى: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] وقال تعالى: [وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ] [النساء: من الآية ٣٢] ولا يحصل للعبد مطلوبه إلا إذا كان سائلاً الله مستعيناً به وحده، معتمداً عليه في جميع أموره وفي هذا الحديث حصر الاستعانة بالله وحده دون غيره من الخلق، والدلالة على أنها أجلّ العبادات، وعليها مدار الدين، فإذا استعان أحد بغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر فإنّ السؤال لله هو دعاؤه والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة (١٦٦)

وأما السؤال، فقد أمر الله بمسألته، فقال: [وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ] فالله تعالى هو وحده المدعو والمرجو، والمبتغى المطلوب بالعبادة، وهو أيضاً وحده المستعان، وعليه التكلان لتحقيق ما نريد، ونحن فقراء إلى الله تبارك وتعالى في معرفته ومعرفة الحق الذي يوصل إليه، كما أننا فقراء إلى عونه عز وجل؛ لكي نستطيع أن نعبده، فنرضيه تبارك وتعالى وننال جنته. (١٧٦)

وإن من تمام هذه العبادة ترك سؤال الناس، فإن في سؤالهم تذلل لهم ومهانة للنفس، ولا يسلم سؤالهم من منة أو جرح للمشاعر، أو نيل من الكرامة، كما قال طاووس لعطاء رحمهما الله: " إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابيه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك "، وصدق أبو العتاهية إذ قال:

لا تسألن بني آدم حاجةً وسل الذي أبوابه لا تحجب
فاجعل سؤالك لئله فإنما في فضل نعمة ربنا تتقلب

وفي قوله: (وإذا استعنت فاستعن بالله):

وأما الاستعانة بالله - عز وجل - دون غيره من الخلق؛ فلأنّ العبد عاجزٌ عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضارّه، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله - عز وجل -، فمن أعانه الله، فهو المُعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله))، فإنّ المعنى: لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاجٌ إلى الاستعانة بالله في فعل الأمور، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على

الإعانة على ذلك إلا الله - عز وجل -، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. وفي الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)) (١٨٦)

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يا رب عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُكَ كَيْفَ يَرْجُو غَيْرَكَ، عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُكَ كَيْفَ يَسْتَعِينُ بِغَيْرِكَ. (١٩٦)

والأمر بطلب العون من الله تعالى دون غيره؛ لأن العبد من شأنه الحاجة إلى من يعينه في أمور معاشه ومعاده، ومصالح دنياه وآخرته، وليس يقدر على ذلك إلا الحي القيوم، الذي بيده خزائن السموات والأرض، فمن أعانه الله فلا خاذل له، ومن خذله الله فلن تجد له معينا ونصيرا، قال تعالى: [إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده] (آل عمران: ١٦٠)، ولهذا المعنى كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر من قول: (اللهم أعني ولا تعن علي)، وأمر معاذ -رضي الله عنه-، ألا يدع في

دبر كل صلاة أن يقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). (٢٠٦)

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((جفَّ القلم بما هو كائن)) وفي رواية أخرى: (رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصَّحَفُ)

هو كناية عن تقدُّم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإنَّ الكتاب إذا فرغ من كتابته، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رُفِعَتِ عنه الأَقْلَامُ، وجفَّتِ الأَقْلَامُ التي كتب بها من مدادها، وجفَّتِ الصَّحِيفَةُ التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها. وأنَّ ذلك أمر ثابت لا يبدل، ولا ينسخ، ولا يغير عمَّا هو عليه". (٢١١)

وقد دلَّ الكتابُ والسننُ الصحيحة الكثيرة على مثل هذا، قال الله تعالى: [مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ] الحديد: ٢٢. وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((إنَّ الله كتبَ مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)). (٢٢٢) وعن جابر: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، فيمَ العملَ اليوم؟ أفيما جفَّتْ به الأَقْلَامُ، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال:

((لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير))، قال: ففيم العمل؟ قال: ((اعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خلق له)). ([٢٣]) وعن عبادة بن الصامت، عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ أوَّلَ ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) ([٢٤])

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((فلو أنَّ الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيءٍ لم يقضه الله، لم يقدرُوا عليه، وإنَّ أرادوا أن يضرُّوك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك، لم يقدرُوا عليه)).

فالمراد: إنَّ ما يُصيب العبدَ في دنياه مما يضرُّه أو ينفعه، فكلُّه مقدَّرٌ عليه، ولا يصيبُ العبدَ إلا ما كُتِبَ له من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً.

وقد دلَّ القرآنُ على مثل هذا في قوله تعالى: [قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا] التوبة: ٥١. وقوله: [مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا] الحديد: ٢٢.

واعلم أنَّ مدارَ جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده، فهو متفرِّعٌ عليه،

وراجعُ إليه، فإنَّ العبدَ إذا علم أنَّه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله له من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضارُّ النافع، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه - عز وجل -، وإفراده بالطاعة، وحفظَ حدوده، فإنَّ المعبودَ إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفعَ المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عن عابده شيئاً، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وأنَّ يتَّقَى سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعاً، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه، قال الله - عز وجل -: [قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ] الزمر: ٣٨. وما ذكرَ من هذه الوصايا النبويَّة لا يُنافي القِيَامَ بِالسَّبَابِ فَإِنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ سُؤَالِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ

رِزْقَهُ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ الْمَأْذُونِ فِيهَا رِزْقٌ. ([٢٥])

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً))

يعني: أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها، كان له في الصبر خيراً كثيراً. فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإذا أتت أحكمت باب اليقين. ومعنى هذا أن حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يُعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على

الرضا بالمقدور فليفعل، فإن لم يستطع الرضا، فإن في الصبر على المكروه خيراً كثيراً.

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:

إحدهما: أن يرضى بذلك، وهذه درجة عالية رفيعة جداً، قال الله - عز وجل - : [مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ] التغابن: ١١. وعن أنس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)) ([٢٦])، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في دعائه: ((أسألك الرضا بعد القضاء)) ([٢٧])

والدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضل مندوبٌ إليه مستحب، والصبر واجبٌ على المؤمن حتم، وفي الصبر خيراً كثيراً، فإن الله أمر به، ووعدَ عليه جزيلَ الأجر. قال الله - عز وجل - : [إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] الزمر: ١٠. ، وقال: [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ] البقرة: ١٥٥. ([٢٨])

والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر: كفُّ النَّفْسِ وحبسُها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكفُّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا: انشراح الصدر وسعته بالقضاء،

وترك تمنّي زوال ذلك المؤلم، وإن وجدَ الإحساسُ بالألم، لكن الرضا يخففه لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة. ([٢٩])

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((واعلم أن النصر مع الصبر))

هذا موافق لقول الله [قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] البقرة: ٢٤٩. وقوله تعالى: [فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] الأنفال: ٦٦. وقال عمرُ لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتُمُ الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا. فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه، حصل له النصر والظفر، ومَلَكَ نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومن جَزَعَ ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غُيِبَ وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن النصر مع الصبر))

يشمل النصر في الجهادين: جهادُ العدوِّ الظاهر، وجهادُ العدوِّ الباطن، فمن صبرَ فيهما، نصِرَ وظفر بعوده، ومن لم يصبر فيهما وجَزَعَ، قُهرَ وصار أسيراً لعدوه، أو قتيلاً له.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن الفرج مع الكرب))

تأمل هذه البلاغة النبوية وانظر لواقع الناس، فإنهم يطلبون دائماً الفرج، ويريدون التيسير والخير، ولكنهم يهربون من الآلام والمتاعب، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد قرنهما، فإذا كنت تريد النصر فهو مع الصبر، وإذا كنت تريد الفرج فهو مع الكرب، فلا يمكن أن تحصل على الفرج دون أن يأتيك الكرب، ومقتضى ذلك: أن الكرب إذا حصل فصبرت، فإن الفرج آت لا محالة. وهذا يشهد له قوله - عز وجل - : [وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ] الشورى: ٢٨.

وكم قصَّ سبحانه من قصص تفريج كُرْبَاتِ أنبيائه عند تناهي الكَرْبِ كإنجاء نوح ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه، وإنجاء موسى وقومه من اليم،

وإغراق عدوهم، وقصة أيوب ويونس، وقصص محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- مع أعدائه، وإنجائه منهم، كقصته في الغار، ويوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، وغير ذلك.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا))

هو منتزع من قوله تعالى: [سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا] (٥)، وقوله تعالى: [فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا] الشرح: ٥-٦. ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أنَّ الكرب إذا اشتدَّ وعَظُم وتناهى، وحصل للعبد الإياسُ من كَشْفِهِ من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكُّل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلَبُ بها الحوائجُ، فإنَّ الله يكفي من توكُّل عليه، كما قال تعالى: [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] الطلاق: ٣. ([٣٠])

[١] رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦). من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج عن حنَّشِ الصَّنْعَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٣)

[٢] جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢)

[٣] إحياء علوم الدين ٣ / ٧٣ تعطير الأنفاس عباس (ص: ٩)

[٤] جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) مرقاة المفاتيح شرح (٣٣٢٣ / ٨) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٧ / ٤٣) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١١)

[٥] جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: ٢٠١) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٧ / ٤٣) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١١)

[٦] أخرجه: الطيالسي (٩٩٦)، وأحمد ٥/٢٧٦ و ٢٨٠ و ٢٨٢، وصححه الألباني في صحيح المشكاة (١٢).

[٧] أخرجه أحمد ١/٣٨٧، والترمذي (٢٤٥٨). وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٠).

[٨] شرح الأربعين النووية لعطية سالم (١٠ / ٤٣) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١١)

[٩] الطبري (١٥٣٤٥).

[١٠] سير أعلام النبلاء ١٧ / ٦٦٨.

[١١] أخرجه: البخاري ٩ / ١٤٥ (٧٣٩٣)، ومسلم ٨ / ٧٩ (٢٧١٤).

[١٢] انظر: حلية الأولياء ٩ / ٢٦١ جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٠) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص:

٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: ٢٠١) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٧ / ٤٧).

[١٣] التفسير القيم لابن القيم - (ج ٢ / ص ٣٠٠)

[١٤] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية لعطية

سالم (٧ / ٥٥) تعطير الأنفاس (١ / ١) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١١)

[١٥] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٧) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٧).

[١٦] جامع العلوم والحكم (١ / ٤٦٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين

(ص: ٢٠١) تعطير الأنفاس (١ / ١) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٧ / ٤٧)

[١٧] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٧) قوت المغتذي (٢ / ٦٠٥) تعطير الأنفاس (ص: ٢٤)

[١٨] أخرجه: مسلم ٨ / ٥٦

[١٩] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٧٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين

(ص: ٢٠١) تعطير الأنفاس (١ / ١)

[٢٠] أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٥ / ٢٤٤)، والنسائي (٣ / ٥٣) وقال الحافظ: هذا حديث صحيح "نتائج الأفكار" (٢ /

٢٩٧) وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (١٣٤٧).

[٢١] قوت المغتذي على (٢ / ٦٠٥)

[٢٢] مسلم (٢٦٥٣)

[٢٣] صحيح مسلم ٤٧/٨ (٢٦٤٨).

[٢٤] أخرجه: أحمد ٣١٧/٥، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) و (٣٣١٩). جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٧٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: ٢٠١).

[٢٥] سبل السلام (٢ / ٦٤٨) جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٧) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١٥) التحفة الربانية في (ص: ٤٤)

[٢٦] الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

[٢٧] النسائي (٣ / ٥٤، ٥٥)، وأحمد (٤ / ٢٦٤)، وصححه الألباني في "صحيح سنن النسائي" (١٢٣٧).

[٢٨] حلية الأولياء " ٣٤٢/٥

[٢٩] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٧) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: ٢٠١) تعطير الأنفاس (ص: ٢٤) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١٥).

[٣٠] جامع العلوم والحكم (٢ / ٥٦٧) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٦) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: ٢٠١) تعطير الأنفاس (ص: ٢٤) شرح الأربعين النووية - العباد (٧ / ١٥).